الفصل الرابع

ملاحظات ونتائج

- تواصل الحوار .
- ملفات يجب أن تغلق .
- لا مبرر للعلمانية فى أرضنا .
- تأكيد كرامة الإنسان .
- المحرقة التى تُعَد لدعاة الإسلام .
- فلسفة تجفيف المنابع .
- حتى المسجد لم يعد خادماً للإسلام .
- التدين الذى يروجون له .
- من الرابح من وراء ذلك ؟

* * *

أريد أن أذكر فى هذا الفصل بعض الملاحظات أو الوصايا التى أرى من الخير أن يتفاهم عليها دعاة الأصالة ودعاة المعاصرة ، إن كان لا بد من بقاء هذا التصنيف أو التقسيم :

● تواصل الحوار :

من هذه الملاحظات : ضرورة تواصل الحوار بين المخلصين من الفريقين ، لتصحيح المفاهيم ، وإزالة الشبهات ، وتقريب الشقة ، ومحاولة توسيع مساحة المتفَق عليه ، وتأكيد التعاون فيه ، والمناقشة الجادة فى المُختَلف فيه ، والعمل على تضييقه ، والاجتهاد فى الوصول إلى الصواب أو الصحيح أو الأصح ، ما وجدنا لذلك سبيلاً ، وإلا وسعنا التسامح والتماس الأعذار للمخالفين وإن اعتبرناهم نحن مخطئين .

وقد أمر القرآن بحوار المخالفين فى الدين من أهل الأديان الكتابية الأخرى ، على أن يكون الحوار بأحسن الأساليب وأمثلها ، وأن يركز على مواضع الاتفاق لا على نقاط الاختلاف . يقول تعالى : ﴿ **وَلا تُجَادِلُواْ أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ، وَقُولُواْ آمَنَّا بِالَّذِى أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** ﴾ (١) .

فإذا كان هذا هو الموقف الواجب مع المخالفين فى الدين ، فمن باب أولى أن يتبع مع المخالفين فى الفكر .

* * *

(١) العنكبوت : ٤٦

● ملفات يجب أن تُغلق :

كما أرى أن من الخير أن نفرغ من بعض القضايا التى حسمها البحث العلمى الجاد ، فينبغى أن نغلق ملفاتها ، ولا نظل نلف وندور حولها دون طائل ، فالأعمار أثمن وأقصر من أن تضاع فى تحصيل الحاصلات ، وتوضيح الواضحات ، ونشر النشارة !

انظر إلى قضية مثل قضية « الربا » ، كيف ثارت منذ أكثر من نصف قرن ، حين كانت الرأسمالية الغربية فى أوجها ، وكان المنهزمون فكرياً ونفسياً من أبناء المسلمين يحاولون أن يجدوا لهم سنداً من داخل الشرع يبررون به استباحة الربا ، الذى جلبه الاستعمار فى ركابه إلى ديار المسلمين .

تمحكوا بالتفريق بين ربا الجاهلية والربا الحاضر ، أو بين ربا الإنتاج وربا الاستهلاك ، أو بين الأضعاف المضاعَفة - كما حاولوا أن يفهموه من سورة آل عمران - وربا الفائدة المحدودة (١٠٪) أو نحو ذلك .

وقام العلماء الواعون الصادقون من رجال الشريعة ورجال الاقتصاد ، وردوا هذه الدعاوى كلها ، بمنطق علمى موضوعى رصين ، من أمثال : أبى الأعلى المودودى ، ومحمد عبد الله دراز ، ومحمد عبد الله العربى ، وعيسى عبده إبراهيم ، ومحمود أبو السعود ، وأحمد عبد العزيز النجار ، وغيرهم .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل دخل المسلمون فى دور إيجاد البدائل الإسلامية عن المؤسسات الغربية الربوية ، فقامت المصارف الإسلامية ، ومؤسسات الاستثمار الإسلامى ، وطفقت تنمو وتتسع ، وتتطور إلى الأحسن .

ثم فوجئنا بمن يردنا خمسين سنة إلى الوراء ، لنناقش من جديد ما فرغنا من مناقشته وانتهينا منه نظراً وعملاً !

ثم انظر المعركة التى بدأت فى عهد الشيخ محمد عبده مع فرح أنطون صاحب مجلة « الجامعة » عن « الإسلام والسلطة الدينية » ، والتى حسمها الأستاذ الإمام - حين جعل من أصول الإسلام الستة فى إرساء العلم والمدنية : « قلب السلطة الدينية » لا إقامتها وتشييدها - لم تزل تظهر بين حين وآخر ، كأنها أمر جديد .

أكد الأستاذ الإمام محمد عبده : « أن الإسلام هدم بناء تلك السلطة ، ومحا أثرها ، حتى لم يبق لها عند الجمهور من أهله اسم ورسم ، لم يدّع الإسلام لأحد بعد الله ورسوله سلطاناً على عقيدة أحد ، ولا سيطرة على إيمانه ، ولم يجعل لأحد من أهله أن يحلّ ولا أن يربط لا فى الأرض ولا فى السماء ، بل الإيمان يعتق المؤمن من كلّ رقيب عليه فيما بينه وبين الله سوى الله وحده . وليس لمسلم - مهما علا كعبه فى الإسلام - على آخر - مهما انحطت منزلته فيه - إلا حق النصيحة والإرشاد » .

وعن الحاكم قال الأستاذ الإمام : « إن الدين لا يخصه فى فهم الكتاب والعلم بالأحكام بمزية ، ولا يرفع به إلى منزلة ، بل هو وسائر طلاّب الفهم سواء ، إنما يتفاضلون بصفاء العقل وكثرة الإصابة فى الحكم ، ثم هو مطاع ما دام على المحجّة ، ونهج الكتاب والسُنَّة ، والمسلمون له بالمرصاد ، فإذا انحرف عن النهج أقاموا عليه ، وإذا اعوجّ قوّموه بالنصيحة ، والإعذار إليه ، ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق . فإذا فارق الكتاب والسُنَّة فى عمله وجب عليهم أن يستبدلوا به غيره . فالأمة هى التى تنصبه ، وهى صاحبة الحق فى السيطرة عليه ، وهى التى تخلعه متى رأت ذلك من مصلحتها ، فهو حاكم مدنى من جميع الوجوه » [1] .

هذا ما قاله الأستاذ الإمام ، وقاله بعده العلاَّمة الشيخ محمد بخيت

---

(١) انظر : الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده : ٣/ ٢٨٥ - ٢٨٧

المطيعى مفتى مصر فى زمنه فى رده على كتاب على عبد الرازق « الإسلام وأصول الحكم » ، كما قرره العلاّمتان : محمد الطاهر بن عاشور شيخ علماء تونس ، ومحمد الخضر حسين شيخ الأزهر بعد فى مصر ، فى نقضهما للكتاب المذكور .

وهو ما أكده بعد ذلك كل مَن كتبوا عن نظام الحكم أو النظام السياسى من العلماء أو الدعاة أو القانونيين ، وهم جم غفير (١) .

ومع هذا الوضوح الحاسم ، أو الحسم الواضح ، فى هذه القضية لا يزال تيار التغريب - يمينيُّه ويساريّه - يبدىء فيها ويعيد .

وآخر ما قرأناه فى ذلك ما كتبه المفكر الماركسى المعروف الأستاذ محمود أمين العالِم ، فى مقاله فى صحيفة « الأهرام » عن « الإسلام السياسى والسلطة » . وكان مما قاله : « هناك ما نطلق عليه اسم « التيار الإسلامى المعتدل » وما نطلق عليه اسم « التيار المتعصّب » ، وما نطلق اسم « التيار الإرهابى » . على أنه برغم هذا التنوع والاختلاف ، فهناك موقف يكاد يوحد هذه التيارات جميعاً ، هو الموقف من السلطة . فهى جميعاً تدعو إلى « السلطة الدينية » . ولا تكتفى بالقول بتطبيق الشريعة الإسلامية أو باستلهامها . بل تدعو دعوة صريحة جهيرة إلى أسلمة السلطة ، وأسلمة المجتمع ، فى مختلف ممارساته وأساليب حياته . بل لعلّ بعضها يدعو إلى أسلمة المعرفة والعلوم كذلك . لا العلوم الاجتماعية فحسب ، بل العلوم الدقيقة كذلك ، كالعلوم الطبيعية » (٢) .

---

(١) انظر على سبيل المثال ما كتبه الأساتذة : محمد يوسف موسى ، ومحمد الصادق عرجون ، وحسن البنا ، وعبد القادر عودة ، وسيد قطب ، ومحمد الغزالى ، ومحمد سليم العوا ، ومحمد أبو فارس ، وعبد الحميد متولى ، وأخيراً ما كتبه خالد محمد خالد « الدولة فى الإسلام » معتذراً عما كتبه قديماً فى كتابه « من هنا نبدأ » .

(٢) انظر الأهرام فى ٩/ ١٢/ ١٩٩٢ ، صفحة « الإرهاب والتطرف فى فكر المثقفين » =

وطالما كتبنا وكتب الكاتبون : أن الإسلام لا يدعو إلى « سلطة دينية » بالمعنى الكهنوتى الذى عرفه المجتمع الغربى ، بل يدعو إلى « سلطة إسلامية » بمعنى أنها سلطة مدنية تختارها الأمة ، تعتمد المرجعية الإسلامية فى تشريعها وتوجيهها وسياستها الداخلية والخارجية .

ولكن الأستاذ العالِم ينكر ذلك أيضاً ، ويعتبر الدعوة إلى أسلمة السلطة ، وأسلمة المجتمع ، أمراً منكراً ! ويعتبر ذلك من ابتداع ما سمَّاه « الإسلام السياسى » ، فماذا يريد من وظيفة للإسلام فى الحياة ؟ ماذا يفهم من تطبيق الشريعة الإسلامية ، إذا لم تسلم السلطة ، ويسلم المجتمع ؟

لقد كان الأستاذ العالِم وزملاؤه أيام عز الماركسية يدعون إلى « مركسة السلطة » وإلى « مركسة المجتمع » ، فلماذا يريد للإسلام أن يبقى متفرجاً ، وهو يرى السلطة والدولة والمجتمع والثقافة ، تسير فى اتجاه آخر ، قد يكون إلى اليمين ، أو اليسار ، ولكنه غير اتجاه الإسلام ؟!

وماذا ينكر من أسلمة المعرفة ؟ [1] أو أسلمة العلوم الاجتماعية ؟ وهل يعنى ذلك إلا أسلمة الثقافة ؟ ومعنى أسلمة الثقافة : تحريرها من سلطان الثقافة الغربية حتى تكون ثقافة أصيلة معبِّرة بحق عن ضمير الأمة وعقلها . ولا ريب أن العلوم الاجتماعية أوصل ما تكون بثقافة كل أمة ، وخصوصيتها الحضارية .

وهذا يقتضى أن تنظر إلى العلوم الإنسانية والاجتماعية نظرة جديدة ، لا تقلد

= وهو الذى علَّق عليه الأستاذ فهمى هويدى فى مقاله الأسبوعى فى ١٥/١٢/١٩٩٢ تحت عنوان « لكى لا نخوض المعركة الغلط » .

(١) انظر ما نشره « المعهد العالَمى للفكر الإسلامى » فى واشنطن عن قضية « أسلمة - أو إسلامية - المعرفة » بأقلام : المرحوم د . إسماعيل الفاروقى ، ود . عبد الحميد أبو سليمان ، ود . عماد الدين خليل ، ود . طه جابر العلوانى .

الغرب فيها تقليداً أصم أعمى ، ولا ترفض كلّ شيء عنده ، بل تعيد قراءتها بعقلية واثقة متفتحة غير مبهورة ، من خلال منظورها الخاص ، ومسلّماتها الدينية والفكرية ، فتأخذ منها وتدع ، وترجح وتضعّف ، بمنطق علمى موضوعى ، بعيد عن التعصب للقديم ، أو التعبد للحديث .

وبذلك تنشأ مدارس عربية إسلامية جديدة فى هذه العلوم ، مكافئة للمدارس الغربية المختلفة فيها . وهذا لا يكون بمجرد إطلاق العناوين ، بل بالبحث الدؤوب ، والدراسة الجادّة الصبور .

أما « أسلمة العلوم الطبيعية » فلا أعلم مسلماً عاقلاً يدعو إلى ذلك ، إلا ما أشرنا إليه من قبل ، من ربط هذه العلوم بالأساس النظرى أو الفلسفى لهذا الكون ، وأنه مخلوق لله ، وأن قوانينه سنن لله فيه لا تتبدل ، فليس ما يجرى فيه من باب المصادفات ، ولا هو من فعل الطبيعة العمياء ، وإنما هو صنع الله الذى أتقن كل شيء وقدرّه تقديراً . وكذلك استخدام هذا العلم فيما ينفع الإنسانية لا فيما يضرّها . أى ربط العلم بالإيمان والأخلاق .

وهل يضير العلم الطبيعى أن يقول مَن استخدمه ما قال سليمان حين جيء له بعرش بلقيس فى لمح البصر ، بواسطة « الذى عنده علم من الكتاب » ، فقال : ﴿ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِى ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ ؟[1] ، أو يقول ما قال ذو القرنين عندما أقام السدّ العظيم : ﴿ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ﴾ [2] .

يبدو أن تصور الكاتب لأسلمة السلطة ، وأسلمة المجتمع ، وأسلمة المعرفة ، لا يمت بصلة إلى ما يدعو إليه تيار الوسطية الإسلامية ، الذى هو التيار الأعمق جذراً ، والأقدم عهداً ، والأوسع انتشاراً .

---

(١) النمل : ٤٠ (٢) الكهف : ٩٨

فالتسوية بين التيارات التى ذكرها ، ووصفها بالمعتدل والمتعصب والإرهابى ، تسوية بين مختلفين أو مختلفات ، كما تدل العناوين ذاتها .

* * *

● لا مبرر للعلمانية فى أرضنا :

ومن الملفات التى يجب أن تُغلق ما ذكره الدكتور كمال أبو المجد فى ندوة (الإسلام والعروبة) وهو : ملف العلمانية التى تفصل الدين عن الحياة والمجتمع ، فقد نشأت فى أرض غير أرضنا ، وقوم غير قومنا ، لظروف لا نظير لها عندنا .

إن الغرب نادى بالعلمانية ليواجه بها كهنوت الكنيسة الغربية التى وقفت مع الجمود ضد الفكر ، ومع الجهل ضد العلم ، ومع الملوك ضد الشعوب ، ومع الأغنياء والإقطاعيين ضد الفقراء والكادحين .

ونحن لا توجد لدينا بابوية ولا كهنوت ، ولا « رجال دين » ما حلّوه فى الأرض فهو محلول فى السماء ، وما عقدوه هنا فهو معقود هناك .

لقد بيَّنتُ فى دراسة لى أن العلمانية فى الغرب لها ما يبررها من فكرها الفلسفى منذ عهد أرسطو الذى يرى أن الله لا علاقة له بالعالَم ، لا يعلم فيه شيئاً ، ولا يدبر فيه أمراً ، ومن فكرها الدينى الذى يذكر ظاهر نصه مؤكداً قسمة الحياة بين الله وقيصر ، وترك ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله !

أما العلمانية عندنا فهى ضد الدين ، وضد فكر الأمة ، وضد مصلحتها . وهى تجرد الأمة من طاقات هائلة كان يمكن أن تفجرها العقيدة والشريعة ، لو كانت العقيدة هى الموجهة ، والشريعة هى الحاكمة .

وقد جرَّبتْ بعض البلاد الإسلامية العلمانيةَ ، وقهرت شعوبها على الخنوع لها ، بسيف الجبروت ، وسوط العذاب ، بدعوى اللحاق بالغرب المتقدم ، والعالَم المتطور . فهل تقدّمت وتطورت حقّاً ؟

إن أبرز مثل لذلك هو تركية أتاتورك ، التى قلدت الغرب فى كل شىء ،

حتى فى لِبْس القبعة ، وتحريم الطربوش ، ومنع الحجاب ، وعطّلت أحكام الشريعة القطعية حتى فى الزواج والطلاق والميراث وشؤون الأسرة ، وعزلت الأجيال عن تراثها تماماً حين ألغت الحرف العربى وفرضت الحرف اللاتينى ، وقطعت الصلة بالعالَم الإسلامى عامة ، وبالعرب والعروبة خاصة ، حتى اعتبرت الأذان بالعربية جريمة .

فماذا كانت النتيجة ؟

لم تستطع أن تقتلع جذور الإسلام ، برغم حذفه من التعليم والثقافة والإعلام ، وعاش معظم الشعب فى صراع بين السطوح والأعماق ، بين الجذور والأوراق ، بين الماضى والحاضر بين العقيدة والواقع .

وانتهت تركية العلمانية إلى ما عبّرت عنه كاتبة تركية بقولها : كنا أول دولة فى الشرق ، فأصبحنا آخر دولة فى الغرب !

بل إن الغرب نفسه - برغم تهالك الدولة التركية على الارتماء فى أحضانه والانتماء إليه - لم يعترف بتركية عضواً فى جسمه ، وجزءاً من حضارته ، ولهذا لم يقبلها فى السوق الأوروبية المشتركة ، وقال فى ذلك المستشار الألمانى بصراحة : إن تركية تنتمى إلى حضارة غير حضارتنا !

وبذلك جسَّدت تركية العلمانية قصة الغراب الذى حاول أن يقلد النسر ، فلم يفلح أن يكون نسراً ، ولم يصلح أن يعود غراباً !

* * *

● تأكيد كرامة الإنسان :

ومما ينبغى التفاهم عليه والتواصى به : تأكيد كل ما يرعى كرامة الإنسان ، ويحترم فطرة الإنسان ، وينمى خصائص الإنسان .

إن الحكماء والبصراء المنصفين من مفكرى الغرب وجَّهوا النقد العنيف إلى حضارتهم ، لأنها أعلت من شأن الجماد أو المادة ، وهبطت بقيمة الإنسان .

فعلينا أن نؤكد ذلك ونتبناه ، ونجعل من ثقافتنا الإنسانية واقعاً حيّاً فى أرضنا ومجتمعاتنا ، ونمكن لها فى حياتنا العقلية والوجدانية ، حتى تؤدى دورها المطلوب فى البناء والإعلاء .

لقد سقطت دولة الشيوعية فى بلادها الأم ، برغم ما تملك من طاقات علمية وتكنولوچية ضخمة ، وما لديها من ترسانة عسكرية هائلة ، بما فيها الأسلحة الاستراتيچية والنووية ، وما عندها من موارد مادية وبَشرية وفيرة . ومع ذلك كله انهار هذا العملاق الضخم ، وهوى فجأة ، وقبلها كان يهدد العالَم كله بغزو أفكاره وفلسفته المادية .

وقد أبان هذا الانهيار أن ثقافته كانت هشة فى حقيقتها ، وإن كانت فى ظاهرها ثقافة متماسكة لها فلسفتها فى الوجود ، وفلسفتها فى المعرفة ، وفلسفتها فى القيم ، وفلسفتها فى تفسير التاريخ ، وقد عبرت عن هذا كله مناهج ، ومدارس وجامعات ، وجند لخدمته علماء وأدباء ودارسون ، وأجهزة إعلامية جبارة ، ورصدت لترويجه ملايين بل بلايين الروبلات .

وما ذاك إلا لأن هذه الثقافة لم تلائم فطرة الإنسان ، ولم تراع خصائص الإنسان ، لأنها لم تعرف حقيقة الإنسان . نظرت إليه باعتبار أنه « كائن اقتصادى » فقط . ينتج ويستهلك . ولا روح له ، ولا خلود له ، ولا رسالة له وراء إشباع غرائزه الدنيا . ورأت أن « الإنسان يقوم وحده » فى هذا الكون ، لا رب يحكمه ، ولا غاية من خلقه . وقد عبّرت عن ذلك بقولها : « لا إلَه والحياة مادة » ! ومن ثَمَّ كان الدين عدواً لها ، وكان الإلحاد ركيزتها .

وسقوط دولة الاشتراكية وذهاب ريحها ، لا يعنى أن الدولة العلمانية الليبرالية فى غرب أوروبا وأمريكا دولة قوية ، إنها قوية فى الظاهر ، كما كانت الدولة الاشتراكية تبدو لنا أو للناس كذلك . ولكن السوس ينخر فى كيانها من الداخل . وثقافتها لا تتناقض فى جوهرها تناقضاً كبيراً ، مع الثقافة الاشتراكية ، إن كلتيهما تنبع من مصدر واحد هو العقل البَشرى المادى

المحدود ، ولا تفكر إلا فى حاضر هذه الدنيا ، ولا تتخذ من الوحى مصدراً ، ولا تعترف بالله حاكماً ، ولا مدبراً . كلتاهما تستغنى بالأرض عن السماء ، وبالعقل عن الوحى ، وبالدنيا عن الآخرة ، وبالإنسان عن الله جلَّ جلاله : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ (١) .

لقد عبَّر « ليوبولد فايس » (محمد أسد) عن ذلك بقوله : إن الحضارة الغربية لا تجحد الله جحوداً صريحاً ، ولكن ليس لله مكان فى نظامها الفكرى الحالى (٢) .

* * *

● المحرقة التى تُعَد لدعاة الإسلام !

إنى ألمح فى الأفق بوادر بل نذراً خطيرة . ففى « غرف العمليات » فى عواصم الغرب الكبرى ، تعد الخطط المدروسة - والتى تُغَذِّيها جامعات وجماعات ومراكز بحوث أكاديمية علمية ، وقد أنفق عليها عشرات بل مئات الملايين بسخاء - تُعَد هذه الخطط الاستراتيجية - كما يقولون - لحرب ضروس ، هدفها ضرب هذا العملاق الذى تحرّك بعد طول رقود أو حبس ، وهو الإسلام الذى ظهر بقوة ، وأثَّر بسرعة فى الحياة الفكرية والسلوكية والاجتماعية والسياسية للمسلمين فيما يسمى « المدّ الإسلامى » أو « البعث الإسلامى » أو « الصحوة الإسلامية » . الخطة الآن تُهيّأ - بل هُيِّئت بالفعل - لضربه وسحقه ، تحت عناوين مضلّلة أو مصطلحات هلاميّة غير محددة .

وذلك مثل عناوين « الإرهاب » و« التطرف » و« الأصولية » وليس المقصود هو ضرب التطرف ولا الإرهاب ، فهم الذين مهّدوا لهما السّبل ، وهم الذين قاوموا الفكر الإسلامى الذى يؤمن بالحوار والاعتدال ، ولم يَفسحوا له

---

(١) الروم : ٧

(٢) من كتاب « الإسلام على مفترق الطرق » لمحمد أسد . ترجمة د . عمر فروخ .

المجال ليعمل كغيره تحت مظلّة القانون . حتى إنهم سمحوا للفكر الشيوعى - المناقض بصراحة لعقيدة الأمة - أن يُعبِّر عن نفسه بصورة رسمية ، ورفضوا كل الرفض أن يعطوا هذا الحق للإسلام ، المعبِّر الحقيقى والوحيد عن ضمير هذه الأمة !

وحين دخل الإسلاميون معهم فى لعبة الديمقراطية ، واحتكموا إلى صناديق الانتخاب ، وظهر أن الشعب قد اختارهم ، كما فى الجزائر ، قطعوا الطريق عليهم ، وتدخلوا بالقوة لإلغاء الديمقراطية كلها ! وقد قال المفكر الكبير الأستاذ رجاء جارودى عندما شارك فى ندوة « الثقافة العربية » بالدوحة : إن الغرب قد قسّم المسلمين إلى صنفين : أخيار طيبين ، وأشرار خبثاء . فالأخيار الطيبون الذين يخضعون لأوامر وتوجيهات البنك الدولى ، وصندوق النقد الدولى . والأشرار الخبثاء هم الذين يرفضون ذلك .

ونقل عن أحد الأدباء الساخرين قوله : إن الشعب إذا صوّت ضد الحكومة يجب أن يُحَل الشعب ، لتبقى الحكومة !

قال جارودى : وهذا بالضبط ما حدث فى الجزائر .

إن الديمقراطية مقبولة ، بل مطلوبة ، بل لازمة ، إذا أتت بالعلمانيين واللادينيين ، ولو بانتخابات مكشوف زيفها ، أما إذا أتت بالإسلاميين ، فالشعب لم ينضَج بعد ، والديمقراطية غير صالحة له . وقاتل الله النفاق !

إنها « محرقة » تُعَد بإحكام للصحوة بل للأمة الإسلامية ، تديرها وترسم معالمها وخطواتها أيد خفية من هناك ، من بعيد ، وراء « الكواليس » وتنفذها أيد ووجوه عربية مسلمة ، هى التى تظهر على خشبة المسرح .

إن هذا المارد خطر ماحق ، فلا بد من العمل الجاد المخطَّط لإعادته إلى القمقم ، كما كان لمدة قرن أو قرنين من الزمان . ولا بد من الاستعانة بكل القوى من يمين ويسار ، وبكل الخصوم من غرب وشرق ، وبكل مَن يهدد

المارد الإسلامى مصالحهم فى الداخل والخارج ، لمحاولة الإمساك به ، طوعاً أو كرهاً ، حتى ندخله القمقم : قمقم الغفلة والهمود وغياب الوعى .

ولا بد من إعادة النظر فى الأدوات الثلاث الجبارة التى تصنع الأفكار والميول والأذواق والمشاعر ، وهى : التعليم ، والإعلام ، والثقافة ، وهى الأسلحة الفعّالة فى تلك الحرب الضروس التى بدأت بالفعل ، بصورة وأخرى ، وفى بلد وآخر .

* * *

● فلسفة تجفيف المنابع :

والفلسفة التى تقوم عليها هذه الأدوات أو هذه المؤسسات هى ما أسماه بعضهم بصراحة : سياسة « تجفيف المنابع » يقصدون : منابع التدين الإيجابى المتحرك المحرِّك . فكل ما يدعو إلى تعميق الإيمان برسالة الإسلام - بوصفه عقيدة وشريعة ومنهاج حياة - وكل ما يدعو المسلم إلى الاعتزاز به والغيرة عليه ، والموالاة لأوليائه ، والمعاداة لأعدائه ، وكل ما يدل على أصالة المسلم واستقلال شخصيته ، وتميزه فرداً ، وتميز أمته بين الأمم ، بوصفها « أمة وَسَطاً » ، وكل ما يوحى بأستاذية الأمة وشهادتها على الناس ، وكل ما يُذكِّر بفريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والنصيحة فى الدين ، والتواصى بالحق والصبر ، وكل ما فيه حث على الجهاد فى سبيل الله ، ووجوب إعداد ما يُستطاع من قوة لإرهاب عدوّ الله وعدوّ الأمة ، وكل ما يشير - ولو من بعيد - إلى وجوب الحكم بما أنزل الله ، ووصف مَن تركه بالكفر أو الظلم أو الفسوق ، أو بها جميعاً ، وكل ما يومىء إلى مقاومة الجور والانحراف ، ولو بكلمة حقّ عند سلطان جائر ، وكل ما يدعو إلى احتشام المسلمة والتزامها بالحجاب الذى فرضه الله عليها بمحكمات النصوص من القرآن والسُّنَّة ، وكل ما يدعو إلى قوّامية الرجال على النساء ، كما نص على ذلك كتاب الله ، وكل مايحذّر من غدر اليهود ، وكيد الكافرين . . كل ذلك وأمثاله خطر يجب أن يُقاوَم ، ووباء يجب أن يُحاصَر .

وبعبارة أخرى يجب أن « تُطهّر !! » مناهج التعليم وكتبه ، وبرامج الإعلام ، وأدوات الثقافة والتوجيه والترفيه ، من كل ما يتضمن تلك المعانى التى أشرنا إليها ، وما شابهها .

بل يجب « تفريغ » تلك المؤسسات وأجهزتها المتنوعة من كل ما يوحى بأن الإسلام هو الحق ، وما عداه باطل ، وأنه صراط الله المستقيم ، وما عداه سُبُل فيها هدى وضلال ، وصواب وخطأ .

فإن أخطر ما يفرزه التدين - المشدود إلى القرآن والسُّنّة وفهم سَلَف الأمة - أنه ينشىء عقلية تؤمن أنها تملك وحدها « الحقيقة المطلقة » ! ﴿ **فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ** ﴾ (١) ، وهذا أصل التعصب وجرثومته .

والمنهج المطلوب اتباعه فى المرحلة الجديدة : أن نغرس فى نفوس الشعب - وبخاصة الناشئة - ما سموه « نسبيّة الحقائق » فليست هناك حقيقة بإطلاق ، إنما هناك حقيقة لدى هذا الشخص ، أو فى هذه البيئة أو فى ذلك العصر . وقد تكون هذه الحقيقة نفسها أسطورة زائفة لدى شخص آخر ، أو فى بيئة أخرى ، أو عصر آخر .

قد تقول باعتبارك مسلماً : إن التوحيد حقيقة لا ريب فيها ، دلّت عليها الفطرة ، ودلّ عليها العقل ، ودلّ عليها الوحى .

ولكن النصرانىّ يقول بالتثليث ، وأن الله ثالث ثلاثة .

والهندوسى يقول بتعدد الآلهة ، وأن الإلَه قد يحل فى بعض الحيوانات كالبقرة أو بعض الجبال أو بعض الأنهار . فما الذى يجعل قولك أولى من قولهم ؟ ودعواك أحقّ من دعاويهم ؟ ودينَك أحرى من دينهم ؟

---

(١) يونس : ٣٢

وقد ترى باعتبارك مسلماً : أن محمداً رسول الله ، وأن القرآن المنزّل عليه كلام الله ، وأن الشريعة التى جاء بها من عند الله .

ولكنْ هناك آخرون من أصحاب الأديان المخالفة ، أو ممن لا يدينون بدين ، يرفضون هذا كله ، ويقولون فى محمد وكتابه ودعوته وشريعته أقاويل أخرى . ولكلٍّ رأيه ووجهته ، وأدلّته التى يستند إليها .

فلا داعى للغضب من هؤلاء ، ولا للإنكار عليهم ، فمَن يدرى : لعلّ ما تحسبه الحقّ الذى لا ريب فيه ، يكون هو الباطل الذى لا ريب فيه !!!

وقد ترى - بحكم ثقافتك الإسلامية - أن بعد هذه الحياة الفانية حياة أخرى ، تُنصَب فيها الموازين ، وتُنشَر فيها الدواوين ، وتُوفّى كل نفس ما كسبت ، وتُكافأ بما عملت ، ثواباً أو عقاباً ، جنة أو ناراً .

ولكنْ هناك آخرون ينظرون إلى الحياة الأخرى نظرة مغايرة ، فيقولون بتناسخ الأرواح ، أو ببعث روحى لا مكان فيه لنعيم حِسّى ، ولا لعذاب مادّى . بل يوجد مَن لا يؤمن بالآخرة ولا بالخلود قط ، بل مَن لا يؤمن بالدين من أصله ، ويراه أكذوبة اخترعها الأغنياء لإلهاء الفقراء ، أو الحكّام لتخدير المحكومين ، ويُردِّدون ما قاله الفيلسوف المادى : ليس صواباً أن الله خلق الإنسان ، بل الصواب أن الإنسان هو الذى خلق الله !!

وليس الذى يقول مثل تلك المقولات من عوام الناس وأغبيائهم ، بل من خاصة مثقفيهم وأدبائهم وفلاسفتهم ، فكيف تعتبر قول هؤلاء باطلاً كلّه ، وقولك أنت هو - وحده - الحقّ المبين ؟!!

إن الذى يليق بك أيها المثقف العصرى - أن تتسم برحابة الأفق ، وتنظر إلى الحقائق - مهما كان مصدرها - باعتبارها أموراً نسبية ، تختلف باختلاف الزمان والمكان والإنسان .

هذا هو المقصود من المعركة الجديدة مع « الأصولية الإسلامية » : تجفيف

المنابع ! إنها الفلسفة « السوفسطائية » عادت من جديد . تريد أن تفرض نفسها على أمة الإسلام . وهى تملك سيف المعز وذهبه . وتملك ما لم يملكه المعز ، ولم يكن ليحلم به ، وهو : الأجهزة المقتدرة فى التعليم والإعلام والثقافة !

والمعركة الكبرى اليوم فى أكثر من بلد عربى : معركة التعليم ، وتفريغه من كل ما ينشىء الروح الإسلامية ، والعقلية الإسلامية ، والنفسية الإسلامية ، وتهيئة مناخ فكرىّ ونفسىّ جديد ، يقبل « التطبيع » مع اليهود ، والخضوع لإسرائيل ، والانحناء لهيمنة « إلنظام العالمى الجديد » كما يسمونه . بما يحمله من أحقاد علينا ، وأطماع فينا ، واستخفاف بنا ، وإذلال لكرامتنا ، كما لمسنا ذلك فى كل قضايانا من قضية فلسطين إلى قضية البوسنة والهرسك .

ولم يقف الأمر عند تفريغ المناهج والكتب من الإسلام الإيجابى المحرّك ، فقد يعوِّض المدرس المؤمن نقص المنهج ومقرر الكتاب ، بما يبثه من روح ، وما يشيعه من فكر ، وما يدل عليه من سلوك .

ولهذا كانت الخطوة اللازمة هى تفريغ المدارس والمعاهد والمؤسسات التعليمية من العناصر الإسلامية الملتزمة ، وإقامة مذبحة كمذبحة القلعة المشهورة ، لهؤلاء « الأصوليين » بإبعادهم عن التعليم كله ، ليخلو الجو للمنافقين والوصوليين والعلمانيين ، ليُفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ، ويحوِّلوا وجهة الجيل من المسجد إلى المسرح والسينما ، ومن تلاوة القرآن إلى قراءة القصص ، ومن الحماس للإسلام والجهاد إلى الحماس للكرة والنوادى ، ومن احترام أهل العلم والتقوى والجهاد إلى تمجيد أهل الغناء ، والرقص والتمثيل . وبذلك تختل القيم ، وتضطرب الموازين .

والهدف من ذلك كله واضح جلى لكل ذى عينين : غسل مخ الجيل الحاضر ، والأجيال القادمة ، وصنع إسلام زائف لها ، لا صلة له بإسلام القرآن والسُّنَّة ، ولا بإسلام سَلَف الأمة ، إسلام « تفصّله » الحكومات على

قَدِّها ، ويعمل فيه « مقص الرقيب » ما يشاء عمله من القطع واللصق ، والحذف والإضافة ، والتقديم والتأخير .

* * *

● حتى المسجد لم يعد خاداً للإسلام :

بقى جهاز مهم لا يتبع الإعلام ولا الثقافة ولا التعليم ، وهو المسجد ، وقد كان فيما مضى هو الملاذَ الوحيد الباقى لأحرار العلماء والدعاة ، ليقولوا فيه كلمتهم ، ويُبَلِّغوا دعوتهم ، وخصوصاً المساجد الأهلية التى لا تخضع لهيمنة الحكومة ، وإشراف وزارات الأوقاف الرسمية .

ولكن الحكومات تنبهت إلى خطر هذه المؤسسة وتأثيرها على فكر الشعب ووجدانه ، إذا تهيأ للمسجد عالِم متمكن صاحب رسالة ، إنه يستطيع أن يقنع العقول ، ويوقظ المشاعر ، ويبعث العزائم ، ويُحرِّك الجماهير فى الاتجاه الذى يؤمن به ، ويُكوِّن مدرسة دينية مستنيرة حرّة الإرادة والفكر ، تأخذ عنه وتتلمذ عليه ، وفى هذا خطر جسيم .

فكان ما تواصت به وزارات الأوقاف والشؤون الدينية فى عدد من البلدان التى اتخذت من الإسلام الإيجابى موقف الخصومة الصريحة ، وهو : إبعاد العناصر المتحركة المحرِّكة من المساجد ، وجعل المساجد كلها تحت سلطان الدولة ، أو دولة السلطان ! وتعيين أئمة وخطباء لها يدورون فى فلك الحكم ، يمدحون ما يَمدح ، ويذمون ما يَذم ، وإن أمر بالمنكر ونهى عن المعروف ، إن لم يكن اقتناعاً ، فخوفاً وطمعاً .

وهنا اكتملت حلقات السلسلة أو الطوق الذى يطوِّق الفكر الإسلامى الراشد ، الملتزم بهُدَى الله تعالى ، وهَدْى رسوله ﷺ .

* * *

● هل ينجحون ؟!

ومع هذا أستطيع أن أقول بلا تردد : إن الإسلام أعمق جذوراً ، وأقوى

سلطاناً ، وأعز نفراً ، وأكثر جنداً ، مما يظن الظانون . وأنه - رغم هذا التخطيط الماكر ، والكيد المبيّت - ستظل هناك ألسنة صدق ، وأقلام حق ، وأيدى عطاء ، ومصابيح هداية ، ومفاتيح خير ، وجند دفاع عن الإسلام ، يظهرهم الله من حيث لا يحتسب أحد ، يحملون أمانة الكلمة ، ويؤدون رسالة الله : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ ﴾ (١) .

ولقد جرّب الاستعمار ، وجرّب ورثته من المَلَكيات والجمهوريات - على اختلاف الاتجاهات الليبرالية والثورية - الدخول فى معركة مع الإسلام ودعاته ، واستخدموا ما يحل وما لا يحل من أساليب البطش والإيذاء ، فشربت سياطهم الدم ، ونهشت كلابهم اللحم ، ودقّت آلات تعذيبهم العظم ، وقُتِلَ مَن قُتِل ، وشُرِّدَ مَن شُرِّد ، ونُكِّلَ بِمَن نُكِّل ، ولكن الله تعالى أخرج الحىّ من الميت ، وأبرز من الأجيال التى ربّوها فى حضانتهم ، وظنوا أنهم صنعوها على أعينهم ، « جيلَ الصحوة » الذى شرّق وغرّب ، وأثبت وجوده فى عالم الفكر ، وعالم الجهاد ، وعالم الاقتصاد ، وعالم الدعوة ، وعالم السلوك .

لا أمل إذن فى انتصار تيّار التغريب العلمانى على الإسلام ، وإن استعان بالخبرات العالَمية ، والمكايد الصليبية ، واليهودية ، والوثنية ، المتربصة بالإسلام . وأنفق العشرات أو المئات من الملايين فى معركته تلك ، فهى معركة خاسرة فى النهاية . ﴿ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ﴾ (٢) .

كل ما فى الأمر أن المسيرة ستتعثر بعض الوقت ، وأن الشهداء سيسقطون فى سبيل الله . وأن المحن ستظل تصقل الناس ، وتميِّز الخبيث من الطيب ، ولكن القافلة لن تتوقف ، والعمل لن ينقطع ، والفجر لن يموت ، وإن طال الليل ، واحلولك الظلام . سُنَّة الله التى لا تتخلّف ، مع الرسل والأنبياء

---

(١) المدثر : ٣١ (٢) الأنفال : ٣٦

وأصحاب الدعوات ، وحملة الرسالات : ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ، وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ، واللهُ لا يُحِبُّ الْظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ (١) .

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ، مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ ، أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ ﴾ (٢) .

يستطيع هؤلاء أن ينجحوا فى حالة واحدة : إذا حذفوا القرآن الكريم ، فلم يعد تحفظه الصدور ، ولا تتلوه الألسنة ، ولا تحويه المصاحف ! كيف وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (٣) .

وحذفوا كذلك البخارى ومسلماً وسائر كتب الحديث ، ودواوين السُّنَّة ، وكتب السيرة والمغازى من علوم الأمة .

وحذفوا أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً وأبا عبيدة وخالداً وطارق بن زياد وصلاح الدين وقطز ومحمداً الفاتح وعبد القادر الجزائرى وعمر المختار والخطابى وأمثالهم من ذاكرة الأمة .

وحذفوا أبا حنيفة ومالكاً والشافعى وابن حنبل وزيد بن على وجعفرا الصادق وجابر بن زيد ، وابن حزم وابن تيمية والغزالى وغيرهم ، وغيرهم من عقل الأمة .

وحذفوا ابن عبد الوهاب والسنوسى والمهدى والأفغانى ومحمد عبده ،

---

(١) آل عمران : ١٤٠ - ١٤١ (٢) البقرة : ٢١٤ (٣) الحجر : ٩

ورشيد رضا وحسن البنا والمودودى وسيد قطب والسباعى وغيرهم ، وغيرهم من حياة الأمة .

وحذفوا وحذفوا وحذفوا . . . إلى أن يحذفوا الأمة نفسها !!

وهيهات ! إن هذه الأمة لن تموت [1] ، لأنها أمة الرسالة الخالدة ، إنها خاتمة الأمم التى تحمل خاتمة الشرائع لخاتم النبيين ، فهى باقية حتى يرث الله الأرض ومَن عليها .

بَيْدَ أن مما يجب تأكيده هنا : أن هذا المناخ المشبع بروح العداء الأسود للإسلام ، والضغط المكثف على علمائه ودعاته ، والمقاومة المستميتة لصحوته ، المستخفة بماضيه وحاضره ومستقبله . . هذا المناخ المكفهر هو أعظم مُولِّد للتطرف والعنف والإرهاب ، والانفجارات المتنوعة الصور ، المختلفة الأساليب ، فإن العنف لا يثمر إلا عنفاً مثله أو أشد منه ، والضغط إذا زاد لا يُولِّد إلا الانفجار . هذا قانون من قوانين الله فى الخلق لا تمكن مقاومته.

ولا يكفى فى إيقاف هذا الذى نسميه : التطرف أو العنف أو الإرهاب ، أيّاً كان سببه ، وأيّاً كان موقفنا منه ، مجرد إصدار الفتاوى الرسمية ، والدعايات الإعلامية ، ونشر الكتب العلمانية ، التى يضعون عليها ختم « التنويرية » ، وإعلاء صوت التغريب واللادينية على صوت الإسلام الحق ، بل هذا كله يزيد النار اشتعالاً ، ويدفع لها بالوقود بعد الوقود .

وإذا استمر هذا الوضع ، فإن المعركة ستكبر وتطول ، لأنها ستكون مع الأمة قاطبة ، وستفقد الأنظمة أساس شرعيتها أمام شعوبها ، وستتسع المقاومة لهذا الكفر البواح ، حتى تمسى الأمة كلها « جماعة إسلامية » !!

* * *

(١) انظر : فصل « هذه الأمة لن تموت » من كتابنا « من أجل صحوة راشدة » ، طبع المكتب الإسلامى - بيروت .

● التدين الذى يروِّجون له :

هناك نوع من التدين مباح ، بل مطلوب ومرغّب فيه ، تُدَق له الطبول ، ويُحْرَق له البخور ، وهو التدين الذى ترعرع فى عهود التراجع والتخلف ، ثم فى عهود الاستعمار من بعده ، ثم فى عهود الحكم العلمانى الذى ورث الاستعمار .

إنه التدين الذى يروِّج الأساطير ، ويُخدِّر الإرادة ، ويشلّ الفكر ، ويجمِّد الحركة ، ويجمع الناس حول أضرحة الأولياء ، وموالد الأتقياء ، ولا يدخل فى « السياسة الملعونة » إلا إذا كانت سياسة الحكومة ! لا يهتم فيه المتدين بأمر المسلمين ، بل يقول : نفسى نفسى . فشعاره : دع الخلق للخالق ، واترك المُلْك للمالك ! إذا سُئل عن منكر شاع ، أو ظلم استشرى ، كان جوابه : أقام العباد فيما أراد !

إنه التدين الذى ترسم الحكومة خطوطه ، وتنسج خيوطه ، وتصنع دعاته ، وتهيئ رعاته ، فهو تدين « مستأنَس » أليف ، سلس ظريف ، يسير فى ركاب الدولة حيث سارت ، ويدور معها كيفما دارت . إذا ادَّعت قال لها : صدقت ، وإن دعت قال : آمين . المعروف ما عرفته ، والمنكر ما أنكرته ، فهى المرجع المأمون ، بل المصدر المعصوم !

يقوم هذا اللون من التدين على الجَبْرية فى العقيدة ، والشكلية فى العبادة ، والسلبية فى الأخلاق ، والمظهرية فى السلوك ، والجمود فى الفكر ، والتقليد فى الفقه ، والنفاق فى السياسة .

لا يعتمد فى ثقافته على المصادر الأصيلة الموثقة ، بل جُلُّ اعتماده على الإسرائيليات والحكايات ، والرؤى والمنامات ، والأحاديث الضعيفة بل الموضوعة ، والروايات الواهية ، والتفسيرات المردودة .

وإذا أخذ عن علماء العصر ، فلا يولِّى وجهه شطر العلماء العاملين ، من أهل العلم والورع والاعتدال ، وأهل الدعوة والتجرد والثبات ، بل معتمد

هذا التدين المشبوه : هو علماء السلطة ، وعملاء الشرطة ، الذين جاء وصفهم فى الحديث الشريف : [يخرج فى آخر الزمان رجال يختلون الدنيا بالدين ، يلبسون للناس جلود الضأن من اللين ، ألسنتهم أحلى من السُّكّر ، وقلوبهم قلوب الذئاب (١)] .

هذا التدين الفردى الانعزالى السلبى الهامد ، هو الذى تتباكى الأقلام العلمانية اليوم على فوات عصره الذهبى ، وانقضاء أيامه المشرقة ، ويعتبرونه هو « الأصل » الذى طرأ عليه هذا التدين « الأصولى » الشرِّير !

وهو الذى يتنادون بضرورة إحيائه وبعثه من مرقده ، وإطلاق العنان له ليصول ويجول ، فى المساجد والزوايا ، والصحف والإذاعة والتلفاز ، ومطاردة ذلك التدين « الجديد » الخبيث .

وأغرب من ذلك تلك المحاولات الماكرة من جماعة العلمانيين ، لاعتبار فترة غياب الهوية ، وتذبذب الأصالة ، وظهور تيار التغريب ، وهيمنته بالقوة والحيلة على أزمّة التعليم والتوجيه والإعلام والتثقيف - طوال فترة الاحتلال وما أعقبه - اعتبار هذه الفترة بما أفرزته ، وما خلّفته هى الأصل والأساس ، وما خالفها بعد ذلك يكون شذوذاً عن القاعدة .

وهذا مما لا ينقضى منه عجب العاجب : أن تكون فترة الاغتراب عن الهُوية ، والانقطاع عن الجذور ،والارتماء فى أحضان الدخيل ، والسير فى ركاب الغازى - بعسكره وقيمه وفكره وثقافته - هى الأصل الأصيل والقاعدة المقررة . وإذا قُدِّر للأمة أن تصحو من سكرة ، وتستيقظ من غفوة ، تحاول أن ترجع إلى الذات ، وتعود إلى الأصول ، وتحيى ما مات من قيمها وآدابها ، وتجدِّد ما بَلِىَ من ثقافتها وحضارتها ، وتُحكِّم ما حُملت على تركه من دينها وشريعتها ، أو تُقوِّم ما اعوَجّ من تفكيرها وسلوكها ، قال لها قائلون : هذا فهم جديد على مجتمعنا ، بل هذا فكر دخيل علينا ، وربما كان وراءه أيدٍ أجنبية تحركه من وراء ستار !

* * *

(١) رواه الترمذى فى أبواب الزهد عن أبى هريرة (٦ · ٢٤) .

● **من الرابح من وراء ذلك ؟**

وهنا سؤال يفرض نفسه ، وهو : مَن الرابح الحقيقى من وراء هذه المعركة الشرسة ضدّ صحوة الإسلام ودعوته وحركته ؟

بالتأكيد ليست هى أمة العرب ولا الإسلام . فإن الأمة لا تكسب باقتلاع جذورها ، وتبديد طاقاتها ، وتشتيت قواها الضاربة ، وتمزيق شملها .

إن أمتنا هى الخاسرة بلا مراء ، من وراء هذا الصراع المرّ الذى يُدَار لحساب غيرها بيقين .

إنها الخاسرة على كل صعيد : أخلاقى أو اقتصادى أو سياسى أو اجتماعى .

وخسارتها لأسباب معلومة لا تحتاج إلى تفلسف :

١ - لأنها إذا انفصمت عن دينها تصبح أمة بلا جذور ، وإن أى شجرة تُفصَل عن جذورها لا يمكن أن تعيش . ومن المؤكد أن جذور هذه الأمة فى دينها .

٢ - ولأنها إذا ضعف دينها ، ووهن انتماؤها للإسلام ، وتمسكها به ، فقدت المفجِّر الأول لطاقاتها المكنونة ، وقدراتها المختزنة .

وقد عرفنا من قراءة التاريخ ، واستقراء الواقع : أن الدين هو المحرِّك الأول لأمتنا ، والقادر على بعثها من الهمود ، وإخراجها من الجمود والخمود . والأدلة على ذلك أكثر من أن تُحصر .

٣ - ومن ناحية أخرى ، فإن الطاقات التى كان ينبغى أن تُوظَّف فى سبيل البناء والتنمية والتقدم الحضارى ، غدت تُوظَّف فى الهدم لا البناء ، وفى التفريق لا الجمع ، وتغليب فئة على أخرى ، أو معسكر على آخر . بل فى تغليب الأقلية المغتربة على جمهور الأمة ، وبهذا تتبدد الطاقات ، وتُهدر الإمكانات . بل تعمل فى الطريق المضاد للأهداف الحقيقية للأمة .

٤ - وبعد ذلك كله ، فإن هذا الصراع المستمر بين عقيدة الأمة ومواريثها

الدينية والثقافية - التى تعتبرها جوهر حياتها ، ومبرر وجودها وبقائها ، وبين القيم والمفاهيم الدخيلة عليها - لن يدع سفينتها ترسو على بر الأمان ، بل ستظل تتأرجح وتضطرب أمام عصف الريح ، وهيجان الموج ، ومعاكسة التيار ، مما يعرضها لأخطار لا يعلم عواقبها إلا الله .

إن القضية خطيرة والله ، بل هى فى غاية الخطورة ، إذا تمت على ما أراد الذين خطَّطوا لها ، أو بقيت مصدراً للاستنزاف الدائم ، فهل من فئة من العقلاء تتنادى بتدارك الأمر وتفادى الخطر ، وإطفاء الشرر ، قبل أن يفلت الزمام ، ويعز الخلاص ؟

أرى خَلَلَ الرمادِ وميضَ نار ... ويوشِك أن يكون لها ضِرامُ
لئن لم يُطْفِها عقلاء قوم ... يكون وقودَها جثثٌ وهامُ
فإنَّ النار بالعودين تُذكى ... وإنَّ الحرب أولها كلامُ

إن الرابح الحقيقى من وراء هذا الجذب والشد ، والجَزْر والمد ، هو القُوى المعادية لأمتنا ، التى تحركها الأحقاد القديمة ، والأطماع الجديدة ، والمخاوف الدائمة ، من ظهور الإسلام مرة أخرى ، فى صورة أمة تملك القوة البَشرية ، والقوة المادية ، والقوة الروحية ، والموقع الجغرافى ، والبُعْد التاريخى ، والعمق الحضارى ، ولديها من الحوافز ما ليس لدى أمة أخرى ، وعندها ما تَقدِّمه للبَشرية الحائرة من كلمات الله ، وهداية السماء .

وفى مقدمة هذه القوى : إسرائيل ، التى ستقر عيناً ، وتطيب نَفْساً ، بما يجرى بجوارها ، من عزل الإسلام عن زمام القيادة ، وتنحيته عن التوجيه والتأثير والتجميع والتجنيد ، فى حين تُحرِّك هى شعبها باسم الدين ، وتجمعهم على التوراة . وبهذا يدخلون المعركة معنا ، ومعهم التوراة وليس معنا القرآن ، ويتنادون باسم موسى ، ولا نتنادى باسم محمد . ويقولون : الهيكل ، ولا نقول : الأقصى ! ويحترمون السبت ، ولا نحترم الجمعة ! فالدين عندهم شرف ، وعندنا تهمة ! ولا حول ولا قوة إلا بالله !

وإسرائيل اليوم فى أسعد أوقاتها ، فقد اتفقت مع الكثيرين ممن كانوا خصومها بالأمس القريب ، على ضرب الصحوة الإسلامية . وغدت تعرض نفسها على كل القوى المعادية للإسلام لتتعاون معها فى مواجهة « الأصولية الإسلامية » الناشزة [1] .

هكذا وقفت مع الصليبية فى الغرب ، ومع الوثنية فى الشرق ، فهى عون للصربيين ضد أهل البوسنة والهرسك ، وعون للهندوس ضد أهل جامو وكشمير .

وقد زار وزير خارجية إسرائيل - شمعون بيريز - الهند ، وأعلن لهم بكل صراحة استعداد بلاده للتعاون معها ووضع كل خبراتها وإمكاناتها ضد خصومها من الإسلاميين !

* * *

(١) وقد برز هذا بوضوح أكثر وأصرح ، بعد الاتفاق المشؤوم المسمى : (اتفاق غزة وأريحا) .

خاتمـــــة

● محاور التقاء :

أحسب بعد هذه الفصول أن هناك محاور يمكن أن يلتقى عليها المخلصون ممن يُحسَبون من دعاة الأصالة ، ومَن يُحسَبون من دعاة المعاصرة . بحيث يتفق عليها الطرفان ، ويغلقون ملفات الجدل حولها .

(أ) فقد تبيَّن لنا أن لا تناقض بين العروبة والإسلام فى ثقافتنا ، إلا أن تحرّف العروبة حتى تكون ملحدة أو علمانية معادية للإسلام ، أو يحرف الإسلام حتى يكون شعوبيّاً معادياً للعروبة .

(ب) كما تبيَّن لنا أنه لا صراع فى ثقافتنا بين العلم والدين ، أو بين العلم والإيمان أو بين العقل والنقل .

فالعلم عندنا دين ، والدين عندنا علم . والعلم دليل الإيمان ، والإيمان ملاك العلم . العقل عند علمائنا أساس النقل ، والنقل نفسه يشيد بالعقل ، ويحتكم إليه ، ولا تعارض عندنا بين صحيح المنقول وصريح المعقول .

(جـ) لهذا يجب أن نعمل جميعاً على تكوين العقلية العلمية ، وتطوير المؤسسات العلمية ، وتهيئة المناخ العلمى ، حتى تدخل الأمة عصر التنكولوچيا المتطورة بخطاً ثابتة .

كما يجب أن نعمل معاً فى الوقت ذاته على إحياء معانى الإيمان ، وتجديد أخلاق الإيمان ، والوقوف فى وجه تيَّار المادية واللادينية والإباحية .

(د) ومما تبيَّن لنا كذلك أنه لا تعارض بين الأصالة الحقة والمعاصرة الحقة ،

إذا فُهِمت كلتاهما على حقيقتها . فنستطيع أن نكون معاصرين إلى أعلى مستويات المعاصرة ، وأن نبقى كذلك أصلاء حتى النخاع .

إنما تتعارض الأصالة والمعاصرة ، إذا فُهِمت الأصالة على أنها الاحتباس الاختيارى فى سجن الماضى ، والمعاصرة على أنها الدوران فى رحى الغرب .

لهذا يجب أن نتفق على رفض اتجاهين متطرفين :

الاتجاه الأول : الذى ينتهى بالأصالة إلى الجمود والتحجر ، ورفض كل جديد ، ومقاومة التجديد فى الدين ، والاجتهاد فى الفقه ، والإبداع فى الأدب ، والابتكار فى فنون الحضارة ، وإبقاء كل قديم على قدمه . والتسوية بين وحى الله تعالى وأفكار المسلمين ، وإضفاء القداسة على تراث السابقين كله ، ومعاداة كل نزعة إلى تطوير الحياة والمجتمع ، وإن كانت على أسس إسلامية ، وحظر الاقتباس من الآخرين ، ولو كان نافعاً للمسلمين ، غير مخالف لشريعتهم .

والاتجاه الثانى : اتجاه الذين ينحون بالمعاصرة نحو الفناء فى الغرب ، واتباع سننه « شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلوه » ، ولا يكتفون بأخذ العلم والتكنولوچيا وحسن الإدارة والتنظيم منه ، واقتباس كل ما تنهض به الحياة ، مما لا يتعارض مع ديننا وقيمنا وشريعتنا ، بل هم يصرّون على نقل الأنموذج الغربى إلينا بكل عناصره ومقوِّماته ، وبخاصة جذوره الفلسفية ، ومفاهيمه الفكرية ، ومجاليه الأدبية ، وتقاليده الاجتماعية ، وقوانينه التشريعية ، ومؤثراته الثقافية .

إن كلاَ الاتجاهين مرفوض ، فأولهما يمثل الإفراط ، والآخر يمثل التفريط ، ولا خير فى واحد منهما ، إنما الخير فى التوسط والتوازن .

(هـ) وقبل ذلك كله ، يجب أن نشيع روح التسامح بين المختلفين ، سواء أكان اختلافاً فى الدين أم فى المذهب ، أم فى الفكر أم فى السياسة . وأن نفتح باب الحوار العلمى الراقى ، الذى سمَّاه القرآن « الجدال بالتى هى أحسن » مع التركيز على نقاط الالتقاء والاشتراك ، لا مواضع التمايز والاختلاف ، مستهدين بقول الله تعالى : ﴿ **ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ** ﴾ (١) .

وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

* * *

(١) النحل : ١٢٥